لفظة ((الموت)) وتداعياتها في شعر شعراء بني عبد القيس

د. ملاذ ناطق علوان
جامعة النهرين / كلية الهندسة

المقدمة : -

كثيرة هي حكايات الموت والفناء التي دونتها صفحات الكتب، لكن تكتشف حقيقة الموت وما جسده من معان على رفات الموتى فانه امر صعب المنال يثير العجب .

للموت حضور في الضمير الانساني منذ أول الوجود لذا نراه في الاسطورة والخرافة والقصة والملاحم الانسانية والتاريخ، وحتى الرقص الايمائي والاعمال التشكيلية، وقد يخرج حادا مؤلما، ومرات فكاهيا محزنا بصيغة عجيبة، فالتجارب الفنية عن الموت تجمع حقائق دنيوية وغموض اخروي، وابداعات فريدة في ان واحد فهي تمثيل لمزيج من الاحداث الحقيقية، اذ ليس هناك واجهة بسيطة للموت، اذ اننا لا نستطيع قراءته، ولكن علينا ان نتعلم كيفية قراءتة داخل النص، لان كل نص،يمثل انطباعا خاصا لصانعه اشتمل على وسائل معينة تساعدنا في الوصول الى المحتوى، فالموت في نصوص بني عبد القيس مثل عرض سردي عبرواسطة شعرية لايصال وجهات نظر ارتكزت على الصيغة الاساسية لشتات مفهوم الموت في التراث الاجتماعي والديني لهؤلاء الشعراء عبورا الى الحدث المقصود ورجالات ذلك الحدث .

لان التعامل مع الموت والموتى داخل المجتمعات الانسانية يكون على خلفية افكار ومعتقدات سائدة من خلال الفهم الاجتماعي الموروث من ناحية، والديانات والعقائد التي يعتقدها اهل الميت من ناحية اخرى .

فالحدث هو الموت عند شعراء عبد القيس ، وهو عملية انتقال من حالة الى حالة اخرى والموت واسطة الانتقال وهو ايضا اساس الصلة الكامنة لتعريف المتلقي ببنية ذلك الانتقال، بالتالي بالموت من خلال كلام ملفوظ او صورة خبرية او أ اشارة ما، وربما هو مزيج من كل هذا .

الموت لغويا :-

لقد ورد في المعجم (مات) الحي – موتا : فـارقته الـحياة .

والشيئ : همد وسكن . يقال ماتت الريح : سكنت . والنار : بردت . والطريق : انقطع سلوكه، والارض مواتا : خلت من العمار والسكان . فهي موات .

(الموت) : ضد الحياة ، (الميت) الذي فارق الحياة . (ج) اموات و(الميت) ومن حكم الميت وليس به (ج) اموات، وموتى [١] و(موتى) جمع تكسير على وزن (فعلى) وجاء على هذا الوزن والرسم في سورة البقرة (اية ٧٣)، وسورة القيامة (اية ٤٠) اما في سورة البقرة (٢٨، ١٥٤) وفي سورة المرسلات (اية ٢٦) ترى لفظة (اموات) [٢]

المعالجة : -

عودة الى ديوان شعراء بني عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي، وتحديدا الى لفظة (الموت) سنجدها مختلفة تماما عما هو موجود في الشعر العربي القديم، وحتى عند الشعراء الاسلامين الذين عاصروهم .

فـــالموت، تـــلك الحقيقة العتيقة العميقة المستمرة، تبقى مـــحور الحياة الانسانية بلامنازع، بارهاصاتها الشعورية، ومدياتها الفكرية، لذا نجد الموت بكل تفصيلاته قدغزا الشعر العربي منذ القدم، وما زال هذا الغزو حاضرا بالوانه المختلفة.

وتاتي لفظة (الموت) عند شعراء بني عبد القيس، مميزة دون سواهم في مواضيع معينة، غنية في بعضها، وفقيرة في البعض الاخر .

مما يمكن عده ظاهرة مثيرة للاهتمام تستحق الوقوف طويلا ضمن مفهوم الظواهر الفنية لحركة الشعر القديم، خاصة نحن نعلم ان حسن اختيار اللفظة يعبر عن احساس عميق بجمالها وطاقتها الايحائية، وهم اهل فن ومعرفة بطرائق الشعر ودروبها . لكن السؤال الذي يبقى قائما، لماذا هذه اللفظة مدوية في دواوين الشعراء على اختلافهم، لكنها ذات لون بارد باهت عند شعراء بني عبد القيس في احيان كثيرة ؟ .

جاءت هذه المعالجة محاولة بسيطة للاجابة على هذا السؤال، وقبل الولوج في البحث، لابد ان نذكر ان عددالمواضع التي جاءت فيها لفظة (الموت) او اشتقاقاتها قد بلغت اثني عشر موضعاً في الديوان باكمله .

جاء في ديـوان الاعــورالشني العبدي [٣]، قوله :-

مساميح بـــالموت عند اللقا ء منا واخواننا من مضر [٤]

السماح صورة من صور العقلية الانسانية في رقيها وتمدنها وفلسفتها في الحياة من خلال سلوكيات يقصد بها الارشاد والتهذيب . ولقد جاء البيت المتقدم في مقطعة مدح فيها الشاعر الامام علي بن ابي طالب وولديه (عليهم السلام) ، فقد جعل صفتهم المميزة عند اللقاء المعركة المسامحة بالموت، وهنا يخرج المقصود الى معنيين كما نرى، في الاول :-

التضحية بالنفس عند اللقاء من اجل اعلاء كلمة الحق، وبيان السبل والاهداف التي تستحق ان يضحي من اجلها الانسان بحياته والثاني :-

مسامحة العدو ، فعلى الرغم من ان قدرتهم – علي وأولاده (عليهم السلام) – وتمكنهم من قتل اعدائهم الاانهم يرون ان أبقاءهم على قيد الحياة قد يهذبهم ويعيدهم الى فطرتهم الانسانية السليمة، وبذلك يكونوا قد كسبوا انسانا يعرف الحق ويؤمن به، وصدى هذا السلوك في النفوس عالٍ، وفي القلوب مدوٍ، ويكمن في اثنائه الحكمة والموعظة، واصابته الحقيقة المنشودة في كيدها المعنى الحياة . وبذلك يكمن في البيت مفارقة قدرية اجتماعية .

فالموت لاينجو منه احد من البشر والجميع سواء، ولكن الاختلاف يكمن في تحصيل الحكمة الناضجة ، والبصيرة النافذة من تجربة الموت المرير، وهذا لايكون الاعند انسان صاحب ميزات خاصة، ولايتقدم احد على علي واولاده (عليهم السلام) في هذا الامر. وبعبارة موجزة قد اكتسب الموت هنا ثوبا بليغا يتجاوب مع وجدان الناس وعواطفهم .

فالبيت في القصيدة قد افلح في المحافظة على استمرارية الانطباع لان نمطية صورة الموت فيها مركبة بمهارة فهي صورة تحمل في طياتها الموهبة الواعية التي تركب القوة العميقة لتنظيم التجربة الحسية للموت في نص شعري بسيط الا انه ياخذ بفكر القارىء نحو طرقات اصقاع مجهولة، وانفعالات في كثير من الاحيان تكون غير واضحة، ولكن يبقى مشهد الموت بكل تداعياته من القوة بحيث نجد حركته اللولبية مستمرة ذهابا وايابا فوق حدود النص الشعري باكمله تاركا المنحى الدرامي ليشكل تدريجيا نبضا طبيعيا لا ستمرارية الصورة الحسية دون تجاوز التفصيلات الصغيرة للمشهد الذي يظهر متكاملا بشكل يفرض على العمل الفني باكمله .

وفي موضع اخر من ديوانه [٥] نقرؤ قوله :

بكت عين من يبكي ابن عفان بـعدما نـفى ورق الفرقان كـل مـكان

ثـــوى تاركا للحق متبع الـهوى وأورث حـــربا حـثها بـطعـان

كِلا فئتيــه عـاش حـــيا ومـــيتا يـــكادان لولا الحق يشتبهان [٦]

يتحدث الشاعر في مقطعته هذه عن مقتل عثمان بن عفان (رض)، الذي بموته ورثت امة العرب والاسلام حربا اشعلها اهل النفاق والكفر، تلاعبت بعواطف الناس وعقائدهم وتجاوب مع هذه الحرب احاسيس الناس في جميع الاجيال، وعلى اختلاف وجهات نظرهم، بل واطبقت على واقع الحياه في عموم الازمنة والامكنة، ولكن بنسب متفاوتة من جيل الى اخر، ومن موضع الى اخر .

والاعــور الشني كــان في مقطعته قاصرا عــلى الحقيقة في تصوره للاشياء ، وقلما لجأ الى الفنون البلاغية الغريبة والبعيدة فقد كان خياله وفكره ماخوذا باحداث واقعية عـلى الارض ، وما نزل بالامة من شدائدوانقسامات .

استعمل الشاعــر لفظة ميتا التي جاءت متوافقة مـع حيا ، متجانسة من حيث الصياغة وجرس الالفاظ والتعليق الدلالي مع حيا، لان لكل لفظة تكوينها وايماءها في البناء النصي،فللسياق اهمية كبيرة في تحديد معنى الكلمة، كما ان للكلمة اهمية في قدرتها على التعبير عن مدلولات متعددة [٧] ولهذا ترى ان شاعرنا قد نجح في توصيل رسالته الى المتلقي، فلقد ادرك المتلقي ان فئتي الصراع تحت لواء الاسلام متشابهتان الى ابعدالحدود، وقد التبس الامر على الناسلولا الحق الذي اصبح ضياؤه ضعيفاً لايدركه الامؤمن صادق، او حكيم عاقل، اوصاحب بصيرة متنورة، فعند ذاك يخرج الحق عن ظل الشك مدويا كشمس النهار بنورها الساطع، ويتواصى الناس بحفظه والسهر عليه .

ومــا يخرج من العقل الباطن عندما يحفر الموت فيه، يكون صورة لتجربة عاطفية تهز الانسان شعوريا وكانه يعيش في حالة شبه غيبوبة، الا أن الموت هنا ليس اهتزازا انسانيا شعوريا فقط ، بل زلزال هـز واقع الامة الاسلامية، وذلك لتداعيات الــواقع اثر مــوت بعض الشخصيات ذات البصمة الــواضحة فــي المسيرة الاسلامية، نحو عثمان بن عفان (رض)، وعـلي ابن طالب واولاده (عليهم السلام)، وغيرهم، فالموت مثل فــي قصائد بني القيس نقاط اهتزاز اممي واقعي اســلامي مخيف .....

وننقل قول الصلتان العبدي:-

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي [٨]

البيت في مقطعة الصلتان العبدي [٩] الموجهة لولده، وهو مــن ابيات الحكمة، فحاجة الانسان بغيتة في الحياةالدنيا، وقيمتها تزول برحيله، فما نفعها في موته ؟¡

هنا لفظة الموت دخلت في فسيفساء الحكمة الموجهه للناس. وقوله حقيقة تجري على الميزان الصحيح، والمنطق الصواب، والفطرة السليمة. وقد اختار لفظة (تموت) فعلا مضارعا دليلا على المستقبل البسيط والاستمرارية، والتصاق حاجات كل امرئ به، ولان موت الحاجات منوط بموت صاحبها،فكان لابد ان تاتي بصيغة المضارع، وهنا يكون زمان الجملة ((غير محدد، قد يستغرق المستقبل كله، او جـزء منه ، ..... ويعود التحديد الزمني الدقيق في جملة هذا المستقبل الى

الظروف الحالية وتقدير السامع والقارئ، او المتكلم والكاتب، لان المتكلم او الكاتب في هذه الجملة لايركز على المدلول الزمني، بقدر ما يركز على اهمية الحدث)) [١٠].

ولفظة الموت سواء كانت فعل (مات ، يموت مت) او اسم (موت ، ميت) مفرد او جمع فهي تحمل في طياتها كثافة مركزة من الالم والمرارة، لانها تجسد الحرمان بكل تفصيلاته وتشظياته الشعورية وتداعياته الاجتماعية .
فهو ليس كلفظة (الحياة) وهي عكس الموت تماما، فبالرغم من ان اللفظتين تحملان في طياتها طاقة حيوية وجودية عميقة، الا ان لفظة الحياة تمتاز باشراق الطاقة الشعورية ، اما لفظة الموت فهي تمثل ظلام الطاقة الشعورية وغموضها التي تحمل في تضاعيفها مديات فكرية مبهمة احيانا ومستويات فهم تنبثق من احساس عميق وشعور مكثف في الذات الشاعرة التي تنغلق على فضاءات لغة الموت الغامضة بادراك حسي تدور عليه مقاصد النص .

وفي موضع اخر من الديوان نرى الصلتان العبدي يمدح الجنيد بن عبد الرحمن المري والي خراسان [١١] بقوله:-

يعيش الـندى ما دمت حـيا وان تمت
فـليس لـباق بعد موتك نائـل [١٢]

يرى الشاعر ان الكرم موجود باق ببقاء الممدوح، لكن بعد موته ليس لانسان باق منا من كريم والـ مدح في الشطر الاول جاء تقليديا تماما، ولكن في الشطر الثاني جاءت الصيغة اكثر جمالية، واحكام صنعة، على الرغم من ان المبالغة تميزه، وقدوردت في البيت لفظتان تدلان على الموت .
الاولى لفظة (تمت) بصيغة المخاطبة الدالة على الانية والتي تحتمل في جرسها الصوتي القوة والثقة العالية بزوال الكرم عند موت الممدوح، والثانية لفظة (موتك) التي جاءت بصيغة المخاطبة الهادئة الحزينة، وهذا متأتٍ من بعد رجاء الناس واملهم في كـريم بعده، كما انها جاءت مضاف اليه لـ (بعد) مما يعني انها تكملة لحاجة معنوية في السياق، وايضا قد اضيف اليها الضمير (ك)، مما يدل على انها لفظه ناقصة المعنى تحتاج الى تكملة معنوية في السياق، وهذا أعطاها ضعفا في وقع جرسها الصوتي في الاذن والمعنوي في النفس، لحاجة الصياغة الشعرية، وضرورات التالق السياقي لذلك، كما انه يدلل على دقة الشاعر في اختيار الفاظه وما تبثة من ايماءات شعرية ومعنوية
وفي مقطعة رثاء للجنيد بن عبد الرحمن يعود الصلتان الى الاتجاه نفسه قائلا:-
كنتما نـزهة الـكرام فـلـمـا مـت مـات الندى ومـات الـكرامُ[١٣]
وصف قوله بانه من جيد ما نظمه في الرثاء وفي الشعر[١٤] . فقد جعل الجود والجنيد بن عبد الرحمن رفيقين متلازمين لاينفصل احدهما عن الاخر، وبهلاك الجنيد هلك الجود، فقد كان مقصد الكرم ومحجة المحتاج، فبموتك ايها الكريم المعطاء مات الندى، ومات الكرم . وهـذا التكرار مقصود لتأكيد موت الكرم والعطاء، خاصة وانـة لـم يـقل (ماتالندى والكرم)، كما انه لميقل (

الموت للندى، والموت للكرم) لان الموت هنا واحد للندى والكرم، ولكنه جعله (فعل) ماضي كرره مرتين، مما جعل موت الجنيد يوازيه موتان، وهما موت الندى وموت الكرم، على الرغم من ان معنى اللفظتين ليس ببعيد، كما ان صيغة (مات) التي يتوسطها الالف وهو حرف لين ومد، والمد يصبغ اللفظة ببعد زمني عميق، يبعث على الياس، ويؤكد الحدث . ويمثل الموت هنا موضوعا فعالا للاستنطاق النصي، والرسوخ في زمن ماضي منتهي، ولكنه يتواصل مع ازمنة اخرى، فكان الموت الذي اختاره الشاعر عبارة عن وحدة نص منسجمة مع البيت الشعري من جهة، ومع المقطعة من جهة اخرى، وفق معايير شكلية ودلالية مستندة الى عوامل متغيرة محدد بدقة .

فهذه السلاسل من التقلبات المختلفة للفظة (الموت) هي في حقيقتها احوال وافعال لروافد السرديات الاساسية في حكاية الحياة المستمرة وتعطي معنى لحركتها وتداعياتها .
فكل سلسلة منها تمثل علامة مضيئة على المقبولية الوجودية التي لا مفر منها، والمقبولية الفنية التي يرجوها الشاعر من المتلقي ، فتلحظ صوت الشاعر يتقلب بنبر قلق يبرز الكيفيات الوجودية المتحققة وغير المتحققة ويؤكدها .
فالموت عند شعراء بني القيس حدث درامي لا يغطي الفجوات بين الصور الشعرية، وانما هو صورة فكرية تعطي اشارات متكررة لصورة اساسية حزينة تظهر نهاية الحيوات الانسانية بحرارة الدم وكأنما الانسان واقع في مصيدة تحمل تساؤلاً عميقاً، لايسبر غوره احد وهو يجابة الروح ويتحرك بها بقوة نحو سواد الموت، كما جحافل خيول الحرب المتزامنة، فهو امر اعمق من ان يحتويه الايقاع الدرامي للنص، على الرغم من انه يشد العقل ويفزعه في ان واحد .

فالشاعر يعيش في عالم زاخر بالتراث الشعبي، مسرفا في افكارة الدينية والعقلية في كثير من الاحيان، لكن النقطة الاساسية في لحظة الموت هذه، هي الحقائق التي جسدتها تلك الصورة التي رسمها الشاعر عن حدث الموت، والتي تعد مقبولة بصورة واعية من خلال افراز معان جديدة،ووجود نظام روحي داخل عالم المادة، وهذه نراها مصدراً للصور الشعرية الحزينة المؤلمة عند شعراء بني عبد القيس .
فالموت المتشكل في النص على هيئة كلمات اي على هيئة لغة شعرية وادراك المتلقي لحيثيات الصورة الموتية بطاقتها الغامضة وحيويتها الجبارة المخيفة قائم على مستوى تفهمة لظل تلك الطاقة وما تحدث من حراك في الصورة في كلمات عادية في قدرة مميزة على تراسل الايحاءات واحتواء الرمزيات، وتدارس الاشكاليات بغية توضيح الغايات والوصول الى النهايات المقصودة من جدوى الموت .
ونقرؤ للخليد بن عينين قوله :-

ما الحي والميت فيما ترى ... من حدث الدهر وريب المنون
الا كغداد راح أصحابه ... او رائح في أثر المغتدين
مات بها الجود واودى الندى ... وانقطع الخبر عن السائلين [١٦]

يرثي الخليد في هذه المقطعة المنذر بن الجارود العبدي[١٧]، بصغية استفهامية تعجبية ممزدوجة بـــالم يتفجر حزنا وبكاء وعظة في ان واحد . فالحي والميت في خضم امواج الدهر وتقلبات المنون وحادثات الايام، ثم يجيب الشاعر عن سؤاله في البيت التالي بألفاظ يكتنفها الخوف والقلق من المجهول، فالميت ذاهب الى عالم ضبابي غامض، وقد راح اصحابة واهله عنه، او هو ذاهب في اثر من ذهب – مات – من قبله وذهبوا دون عودة .

وبهذا الموت قد ذهب الكرم ، ودفن الندى ، ولم يبق خير يغدق السائلين والمحتاجين .
فالموت في نص الشاعر يمثل ابتسامة باهرة لكنها باردة صفراء بصورة رشيقة وراعشة لقامة – الموت - الفارعة القاتمة ذات الواقع الاجوف المخنوق المستمر وتلك الاستمرارية مشحونة بحرارة الالم والحزن .

فالموت هنا يحدث زلزالا في عالم الامة وكأنه لعبة خفية تشد الحدث بواقعه وناسه برصانه واثارة، فيخرج النص بعذاب الذات وبساطة التقنية .

وفي انتقالة الى الشاعر خالد بن المعارك العبدي [١٨]، وهو ينظم في ذم الجنيد بن عبد الرحمن والـــي خرســـان،اذ قال

انظر ترى للميت من رجعة ام هل ترى في الدهر من خالد [١٩]

يندرج هذا البيت تحت عنوان الحكمة، فهو يدعو المتلقي للنظر ببصره وبصيرته بتساؤل يحمل في طياته اليقين، هل راى في يوم ميت عاد من موته، ام هناك من خالد على مر الدهر .

نلحظ ان للموت تأثيراً على جوانب الادراك في البنية الشعرية وعلاقتها باللغة، مما يدفع بالنص الى مسرح الدراما الحياتية والثقافية، لان الموت فيه يمثل عنصرا رئيسيا .

لفكر ما ، يتم من خلاله توليد رموز ثقافية تجسد الافكار الانسانية المعقدة والضبابية والغائرة في عالم المجهول الى نوع من المفاهيم العلاماتية والدلالية، لذا ترى شاعرنا وغيره من الشعراء يظهرون الاهتمام بالفجوة ما بين نص الموت الذي يقصده من جهة ووصف ذلك الموت من جهة اخرى، ضمن جدلية المفهوم الجمعي لهذه اللفظة في ثقافة ما او مجتمع ما او عقيدة ما، والتي تمثل (اللفظه) الغموض .
وربما رداء الغموض هذا ليس سوى حالة حماية لحقيقة ذواتنا التي تفتقر الى الفهم الموضوعي لفحوى الموت .

اما صعصعة بن صوحان العبدي[٢٠]، تراه ينادي الموت .
قائـــلا :-

يـــاموت ماذا اردت مـــني حـــققت مـــا كنت اتقيه
يـــامـــوت لـــو تقبل افـــتداء لـــكنت بالروح افتديه [٢١]

يرثى الشاعرالامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) واصحابه مستخدما (ياء) النداء،وهو حـــرف نداء للقريب والمتوسط والبعيد وبذلك يرى الشاعر ان الموت مصاحب للانسان حد الالتصاق على اختلاف المسافات والازمان، فالموت مورد يرده الجميع، واصحاب الحق اهل السبق لذلك المورد .
ثم نجده قد شخصن الموت جاعلا منه شخصية تخاطب وتعي، فيسأله ماذا تريد مني اومنا نحن اصحاب علي (عليه السلام) ؟ بعدما حققت بغيتك على الرغم من محاولاتنا للأ تقاءمنك .
ثم يعود وينادي الموت مرة اخرى وبالطريقة نفسها، لو يتقبل فدية او تضحية حتى يعودعن مقصدهويترك بغيته،لكان افتداه بالروح وهياغلى مايملك الانسان .
شخصنة الموت هذه تمثل نمطا دراميا قابلا للفصل عن باقي التجربة الشعرية في النص، بحدود زمكانية ، لذلك فانهذه الشخصية تعد وحدة شكلية ، لابد للنص ان يتميز بها ، مما يؤكد نزعة وتوجه صاحب التجربة ذاتها لان الامر منوط باسلوب التعبير عن المحتوى الشعوري من خلال نمط ترميز شكلي يستخدم روابط متماسكة بهدف خلق انطباع بالتوحد، يلقي نظرة اكثر عمقا وتفصيلا على تلك الافتراضات الشخصانية .
لقد كان وما زال الموت يمثل صدمة عنيفة لاي انسان، ولكنه في شعر شعراء بني عبد القيس مثل صدمة عنيفة للامة في اكثر من وضع، وذلك لانه ادى الى تشظي وحدة الامة، وابتعادها عن مجراها الطبيعي الذي اوجدت من اجله، لانه افرز تداعيات هزت المجتمع والعقيدة في ان واحد، وابتعد بالامة عن التوازن العقيدي والانساني المرجو منها، فكانت الامة الاسلامية في الموج العاتي للفتن والنزاعات التي اوجدها مستفيدو الموت من قتل الخلفاء الراشدين (رض) .
وبهذا كان الموت اعظم الاحداث التي مرت بالامة لان جبروتة وعظمته يرافقانه اينما حل وفي اي منزل نزل ، فكانت سطوته في تلك الحقبة الزمنية امرا مخيفا للشاعر والانسان على حد سواء . واذا نظرنا الى المعادلات الذهنية الحادة التي ينقلها النص الشاهد الرئيسي على دور الموت في تفسخ الامة ومحاولة مصادرة الانسانية التي ركزها الاسلام في تلك الحضارة .
فالتطور الترجيحي بين المتصارعين انذاك دفع بالامة نحو واقع مهترىء دقيق يثير القلق لدى الشاعر ، فهو لايرى من الموت القادم سوى السواد، وهذا السواد لايشبه سواد موت سابق،
لهذا سيكون الحال الجديد مغيرا لاصول التكوين الداخلي للذات الانسانية الاسلامية التي ارادها الله سبحانة وتعالى، فضلا عن ارتباك مسير الحياة وقيمها ومعاييرها وتعامليتها مع الاخر، فكان قلبا للموازين التكوينية الانسانية، فكان الموت صانعاً لعالم خاضع ذليل مخيف اثر فيما بعد على حياتنا واجيالنا حتى يومنا هذا، وهذا ما كان يرعب الشعور في شعر شعراء بني عبد القيس .

ولعل ميزة حرف النداء في مقطع الموت هذا، يعطي للموت الصامت المهول صوتاً وحركة ما يحدث الصخب البشري عند الحدث – الموت – وما بعد الحدث من ادراك لهول الصدمة، ومحاولة تحليلها استنادا لتحليل الحدث،وهذا امر قد يثير الغرائبية والدهشة مما يشكل فارقا فعالا في بناء الصورة الشعرية الحركية على الرغم من ان بطل الصورة هو الموت

اما حكيم بن جبلة العبدي [٢٢]، فقد قال في الموت :-

ليس عـلي ان اموت عــار والعارفي الناس هـو الفرا ر

والمجد لا يفضحة الدمار [٢٣]

البيت من الرجز، ويؤكد الشاعر فيه حقيقة ان الموت ليس بعار، لانهامر مقدر لكل المخلوقات، لكن العار الحقيقي في الفرار من المعارك،وللموت اقتدار مهول، فهو الدمار وغموض الفناء الانهم الناس جميعا لايستطيعون انهاء مجد الممدوح ومحو ذكراه العابقة في الافاق .

بالتالي يبدو الموت منعدم التوازن بشكل ثابت دون اهمية وظيفية او موضوعية في حل او تدوير مسالة خلود الذكرى، مقابل فناء صاحب الذكرى ان سرد تفصيلات الموت متعلق بتشعبات التوتر الشعوري يظهر مرة مفهوماً عريضاً لقصة ما، يسمح لنا بتضمينه اوصاف معينة تمثل احداثا ومواقف بترتيب معين في ان واحد حقائق دنيوية وابداعات ملحوظة، ضمن تسلسل احداث قد تظهر عشوائيا لكنه يتميز كونه ينتقل من توازن الى اخر، ضمن مساحة الموت بشقيها المعروفهوالمبهمة .

(فالموت) لايمكن قياسه او تحديد مقداره، لانه امر لا متناهي ينبع من الوجود في الوجود ومن نفسية الشاعر بتوثبها الدائم وتوقها الى تغير الحال، واحداث حدث غير الحدث .

وقد استطاع شعراء بني عبد القيس ان يخرجوا من بحور الشعر انفاسا موسيقية تتنوع بتنوع عواطفهم واحاسيسهم في انسجام صوتي منسق يعبر عن الحدث وما ورواء الحدث، فكان النسيج الموسيقي بشقيه الداخلي والخارجي معبرا عن غايات (الموت) وما يعززة من احاسيس متناقضة تملؤ بها روح الشاعر وعالمه النفسي الواقعي، وتجد صداها عند المتلقي ايضا .

نظرة (للفظة) الموت في علم الكلمات :

عند دراسة لفظة (الموت) في علم الكلمات، فان معنى اللفظة هو شيى منسوج من حروف معينة هي (الميم ، الواو ، التاء) ، وهو جذر ثلاثي، والمتمعن في هذه اللفظة يرى التحولات المستمرة لحروف اللين فيها، مما ينتج عنها اشتقاقات مختلفة،اقوال صورية مختلفة، لان صداما مع المعنى الكامن فيها يبدو امرا لامفرمنه، في محاولة لاحتواء الرؤيا العميقةوالمهيمنة للمعنى الكامن في هذه اللفظة الموجزة الغنية فحرف الميم له ميزاته الخاصة التي تظهر وتستنفر بصورة بيئية عند مزاوجتة مع حرفي (الواو ، التاء) فهو حرف ناعم حد الذوبان والاضمحلال وهذا ما يناسب معنى الموت تماما ثم حرف (الواو) الذي يوحي لفظة مفردا بالعويل والهياج وهذا ايضا ما يناسب معنى الموت، وياتي حرف (التاء) الذي يوحي لفظه بالضياع والياس الحزين الذي يدفع باتحاه اللامبلاة المؤلمة النابعة من اللاوعي للمقاومة الانسانية باتجاه البقاء والخلود .

لذا نستطيع ايضاح شيئ عن هذة اللفظة من خلال عمليات ومعالجات ذهنية تقدم في اطار لتمثيل تجربة انسانية او اكثر مما قد يصل بنا الى فهم افضل لعمليات خلق وبناء نصوص تخبر عن الموت في اللاواعي الانساني، وبذلك قد نقترب خطوة من معنى هذه اللفظة الروحي العميق الثر .

وفي السياق نفسه قد يقال ان عرض خبايا الموت وتفسيرها قد تنسجم تقريبا مع رسم اللفظة من حيث الحروف وبنيتها الصوتية وتقلباتها الاشتقاقية.

فاللفظة – الموت – تمثل مصطلحا ينجز ويحرك ولايطوق تلك الكينونات التي يبدو وجدودها في اداء اشتقاقات لفظة الموت بمراحلها الاشتقاقية المختلفة فكلها يمثل اوجها لمحتوى الخواء ضمن عرض لاحداث من نوع ما داخل مسرح الحياة واضوائه المتباينة بين خافت وبراق، فالموت لا يمثل دراما حياتية عالية الامن خلال تجسيده في اعمال تحتوي الاحداث والمواقف المتزامنة مع حدث الموت ذاته .

في نظر الكثيرين قد تكون لفظة (الموت) مجرد لفظة تعبر عن حالة معينة، والحقيقة هي لفظة لها امتدادات مستقبلية في الحياةالاجتماعية والنفسية للانسان، كما انها تحيل المشهد المعاش الى تحليلات واقعية فعلية وملفوظية تقودنا الى اكتشافات دلالية متعددة داخل النص، وحيثيات ملفوظية في ثنايا الخطاب، وتكسب النص صفة الاستدلال بغية الوصول الى نتيجة متوخاة تمثل الهدف من تجسيد الم الموت والفراق في النص الشعري .

ان وظيفة لفظة (الموت) الاساسية في شعر بني عبد القيس هي توجيه الكلام الى الاهتمامات المقصودة مما يظهر عن انتاجية وراء الكلام المثبوث او في تلقية من خلال وسائل منطقية والالسنية .

ولعل ذلك واضح في الحوار الفعلي عند الشعراء كما راياناه او من خلال الحوار المتخيل الذي مر علينا في نصوصهم، وفي حالات مخاطبة النفس او ما نسمية حديث النفس ايضا بغية الوصول الى الغاية المنشودة بفعالية وتفاعلية عالية جدا، هكذا هي المفردة (الموت) المتميزة عن باقي الالفاظ، لاحتوائها الغنى والاضمحلال ، والحياة والبعث في ان واحد، ولا اعتقد توجد لفظة في قاموسنا العربي بهذا الغنى العجيب المخيف الذي يحتوي سر الحياة وشفرة الوجود .

فالبرغم من ان العديد من النصوص التي تصف الموت وتتحدث عنه اوردته واستعرضته بصورة مطابقة للحدث، ولكن ليس جميعها يقود الى كشف الغموض ورفع الضبابية عنه، فالنظر الى ما هو خاص في النص يقودنا الى تحليل العلاقات بين تاليفه الدقيق ومقاربة الواقع اليومي والاغراق في المضمونية .

فهذه اللفظة وما تحمله من ضدية هي كما تبدو تحصيل حاصل لتمرد متراكم للواقع المعاش، وما خلقتة الحروب، والمشهد الحقيقي في صورة الموت الذي تصدرت جزءا من نتاج شعراء عبد القيس لاتخرج عن نسق واحد كان سائدا يصادر الحياة بالموت والواقع المعاش بالياس حد القنوط فيتخلى الانسان او يتجرد من انسانيتة فيكرس بذلك الموت كأنه كتلة موحدة تقف امام قضايا عديدة بوجهة واحدة على الرغم من قراءةالنصوص والتحاور معها لمعالجتها من خلال تفاعلاتها مع المجتمع وطبيعة التعقيدات القائمة بين النصوص والمتلقي والقوى التي تتوالى مع انتاج الوسائل في حركة السياق الاجتماعي، بالتالي السياق النصي ، لتعيد انتاج ايدولوجيات معينة .

لقد صاغ الموت في نصوص بني عبد القيس اسئلة مهمة في سياق الابعاد التداولية لهذه اللفظة عبر احوال اسنادها وتميز هذا الاسناد في صياغة النص، وان لم يُجب عن هذه الاسئلة الا انه يحدد وجهة اللفظة من حيث التركيب والتداولية، واهميتها في ابراز وظائف البينات التركيبية للجمل ولمعنى القضايا المعالجة .

والحقيقة هناك بنية محمولية تأخذ وظيفة دلالية للفظة الموت في النصوص الشعرية وتلحق بها وظيفة تركيبية معينة تدخلفي صميم العمل اللغوي والصياغي وتكون شديدة الملاءمة لذا تمثل تيارا قيسيا يحمل تمشية فلسفية اصيلة لعمل قائم وجاحد ، وكونها

((اللفظة)) الة تطرق النصوص طرقا، لتحيلها الى رموز غائرة في الحس الانساني والوجودي لتكوين معلم قراءيا لنا .

ويمكن ان نفهم من تبادل لفظة (الموت) للمواضع داخل النصوص الشعرية، واذ ان الفهم والتفاهم يثيران اشكالا ما للشاعر والمتلقي في ان واحد لان قوة الحدث هي المسيطرة على المشهد الواقعي ومن ثم المشهد الشعري .

فكان الموت عند شعراء بني عبد القيس صراعاً بين الوجود واللاوجود، صراع قيمي، اخلاقي، مؤامراتي، فالموت عندهم بطل يدير احداثاً متتالية لقصة الوجود الاسلامي مرة، والوجود الاخلاقي العربي مرة اخرى، لحظة من اقبال الزمن الدرامي على الامة العربية الاسلامية انذاك .

ومهما كان الامر فان الدلائل تؤكد وجود علاقة وطيدة بين الشعراء والموت وما بينهما من وشائج تستفذ الشعور، وتهز النفوس الما وحيرة ويتمخض عن ذلك التفاعل العجيب مفهوم الخلود وهو قصد وغاية عند الانسان عامة والعرب خاصة، خاصة ذلك الخلود القائم على الاخلاص والوفاء، بدليل الاساطير الخيالية التي تكلمت عن الموت وما يحاك حوله من روايات، ولعل ما نقش على جدران المعابد في مصر القديمة وبابل مثل حي قائم حتى يومنا هذا ، شاهد على ما تقدم من معالجة نقدية .

ومهما كانت ديانات هؤلاء الموتى على اختلاف عصورهم، ومنهم عصور ما قبل الاسلام، فقد كانوا يؤمنون بالحياة ما بعد الموت، ما حدا بهم في كثير من الاحيان الى دفن ادواتهم الحياتيةمعهم .
كل ذلك رغبة بالبقاء ومقاومة الاندثار، ومحاولة الخلود في هذا الوجود.

الخاتمه :-

ومع كل ما تقدم لابد لنا من القول ان بعض الالفاظ تمتلك سمة فريدة، اذ تبدو لنا واضحة معانيها في متناول اليد، لكن ما ان نقترب لمسكها حتى نراها تبتعد وتصبح غامضة وعصية على التحديد وكأنها تمتلك شيئا من السحر الدلالي .
ولفظة الموت من تلك الالفاظ التي ظلت تنطوي على نقص في المعالجة وافتقار للتوضيح المنشود وتأطير الحدود والتخوم حتى يصبح لها عمق دلالي معتمد تتصف به من جراء استعمالها مما يطرح اسئلة عديدة ترتبط باهمية وقعها في الشعر بصورة خاصة والفنون الاخرى بصورة عامة، وظيفتها وعلاقتها بالتراث الديني والثقافي للمجتمع .
لقد خضعت لفظة الموت لنسج شعراء بني عبد القيس مما جعلها تضخ في اطارها الدلالي وفقا لمنظورهم الخاص معاني متباينة تبدو في احيانا متضاربة ومتقاطعة واحيانا اخرى متوازية بعضهامع بعض، وهنا تكون الصعوبة في تحديد معاني ودلالاته الموت ومدراكاته من خلال المقاربة الجوهرية لطبيعته .
فللفظه الموت جامعة للتأويل، خاضعة للابداع الانساني تحاجج بحجج منطقية وقد تخرج الى هزل استنباطي ركيزته خواطر القلب والم الروح، فيعمل القلب والعقل في دائرة فلسفيه تأملية لانهاية لها .
فاللفظة قيد البحث تحتوي بتفرد نادر الابعاد البصرية والسمعية والعاطفية والانفعالية للروح الانسانية
فهي لفظة تكاد تكون سحرية لعمقها الحقيقي المؤلم الموثر والذي عجز الانسان بكل ارهاصاتة عن سبر أغوارها بدقة متناهية، لذا ظلت ضبابية واسعة ذات تعليل تداولي يؤثر فية عوامل هدم، او شواهد تسعى للتوصل الى حقائق ذات اصول حضارية لدى المجتمع مرة او ذات عمق ديني غامض مرة اخرى .
لذا نرى العقل البشري يندفع في اثرها بشقيه الشعري والبحثي غارق في خضم الضجيج والغبار الناتج عن وقعها، لاهث ورائها ولكن على قدر من الصحو يكفي ليشعر الانسان انه محمول باندفاع الجري الجامح في ايقاع خانق ومضيءمرة، حزين ومدوي مرة اخرى .
هنا على الاقل يلتقي الانسان – من خلال لفظة الموت – بما قد كانه، وفي حياة كان يسعى فيها الى ان ينتمي .

كانت هذه المجابهه القذرة المخيفة الصابرة تتيح له ان يعود الى ذاته الشاعرة في ساعات الحزن والاسف .
فاللفظه بلونها الخفي تلعب على عدة مستويات شعرية وشعورية ونصية في ان واحد، لتتشظى الى بركان من الالم والاثارة في الذاتالانسانية، وكأنها تجمع بـــطريقة عجيبة منتصف النهار ومنتصف الليل فهي الحد الفاصل في التحول الحياتي للانسان الميت والحي معا .

لذا جاء اسلوب شعراء بني عبد القيس في ذكر الموت ذات طابع عقلي واسلوب معتمد على اللمحة الذكية والايجاز الشديد مرة، وفتح باب التساؤل والمناقشة مرة اخرى، ويكون باردا لايحتوي معاني اللفظة وادراك وقعها عند المتلقي ثالثة .

وخلاصة القول ان هذه اللفظة اينما وردت تمثل قوة غير عادية تدفع الى كسوة الافكار والمضامين بالصور والالوان المختلفة والتي تعكس دلالتها وتطورها في اوجه مختلفة مفردة احيانا ومتسلسلة احيانا اخرى. فتأمل الحالات السايكلوجية والواقعية للتفاعل مع لفظة الموت، وحدث الموت يربط الانسان والشاعر خاصة باحساس غامض ومهيمن بتلك اللفظة، مما يدفع الشاعر للحديث الحميمي مع الموت من خلال النص الشعري المرير الذي يتصف بالنضج والعذوبة، والغرق بالاسى الكثيف والاستغاثات الملتاعة غير الواعية للنفس الانساني المراقبة للحدث في ان واحد .

كل ذلك في نصوص شعراء بني عبد القيس على قلتها الا انها تمثل حياة تتنفس تنفسا كبيرا وصامتا عميقا على مشارف الموت والحياة معا، مما يجعل نصوصهم مميزة دون سواهم من حيث الملامح الوجدانية واللغوية، فالموت في شعرهم ليس لعباً بالالفاظ، بل عذاب الذات الذي يستند الى مخيلة حية وغير منفلتة، وبساطة في التقنية الصنعة الشعرية، كل ذلك مكنهممن تقديم نصوص مدوية، لها دلالة غائمة احيانا ولكنها ذات سطوة مؤثرة في عالم الشعر، وعالم الانسان، لهول اللفظة والحدث معا .

وما يبرزه عندهم تركيبة رفيعة من نفحات الموسيقى الشعرية هادئة ذكية، يقابلها اساس من الفاظ تمثل الانسجام بين التقليد والمعاصر اي بين النسق الجاهلي والنسق الاسلامي الاموي، بالتالي تتمتع نصوصهم بشخصية مميزة ذات طابع حيوي واسلوب طبيعي نابض بالامل الممزوج بالالم والياس معا .

الهوامش :-

١- المعجم الوسيط ، اخراج الدكتور ابراهيم انيس واخرين ، وباشراف حسن علي عطية ومحمد شوقي امين المجلد الثاني ، مادة (ميت) الطبعة الثانية .

٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل ، تاليف ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧- ٥٣٨ هجري) / ص ١٥١ .

٣- هو بشر بن منقذ احد بني شن بن أفصى بن عبد القيس ، وكنيته ابو منقذ ويرى فيه ابـن قتيبة شـاعراً محسناً ويصفه ابن حزم بانه شاعر فاق اهل زمانه .

٤- شعراء عبدالقيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي جمع وتحقيق ، الدكتور عبد الحميد المعيني مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري،ص٢٠ .

٥- ينظر :- جمهور انساب العرب ، ابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد (ت٤٥٦هجري)، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ ص٢٩٩، وينظر : الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري دار صادر ، الطبعة الثالثة ، بيروت .

٦- شعراء عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي / ص٣٨

٧- ينظر :- الالفاظ المعبرة عن الكلام في التعبير القراني، دراسة دلالية ، رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة نبراس حسين مهاوش جامعة بغداد ، كلية التربية للبنات ٢٠٠٥م ص

٨- شعراء بني عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي / ص٦٨ .

٩- هو قثم بن خبية بن قثم بن كعب بن سلمان بن عباد بن عبد الله بن عمرو بن هجرس بن ثعلبة بن عامر بن ظفر بن الديل بن عمر بن وديعة بن لكيز بن افضى بن عبد القيس ، ولقب بالصلتان لبيت قالة ،وكان مواليا لـــ (علي بن ابي طالب) .

٩- الدلالة الزمنية في الجملة العربية ، الدكتور علي جابر المنصوري ، مطبعة الجامعة، بغداد الطبعة الاولى ١٩٨٤ م / ص١٠٥ .

١١- ينظر :- شعراء بني عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي / ص٨١ . والجنيد هو بن عبد الرحمن المري والي خراسان

١٢- شعراء بني عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي / ص٨١.

١٣- المصدر نفسه : ص٨٦ .

١٤- ينظر : تاريخ من دفن في العراق من الصحابة ، علي بن الحسين الهاشمي ، دار الثقافة ، بيروت – ١٩٧٤ ص١٥٢ .

١٥- شاعر من قبيلة عبد القيس في العصر الاموي ، وهو من اهل هجز واقام في البحرين في مكان يدعى عينين فنسب اليه .

١٦- شعراء بني عبد القيس / ص ٩١ .

١٧- المنذر بن الجارود ، احد رجالات بني عبد القيس وهو من البحرين وقد قضى نحبه في بلاد السند في موضع يقال له قصدار .

١٨- هو الشاعر بن عرس من بني غنيم بن وديعة بن كليزبن افصى بن عبد القيس، كنيته ابو يعقوب ، قال عنه المرزباني كان شاعراً مجيداً،عن ديوان بني عبد القيس، ص ٩٣.

١٩- شعراء بني عبد القيس / ص٩٣ .

٢٠- هوصعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث بن الهجرس بن حيرة بن جان ابن عساس بن ليث بن حداد بن ظالم بن ذهل بن عجيل بن عمرو بن وديعة بن افصى بن عبد القيس . وينظر :- جمهرة النسب ، لابن الكلبي / ص٥٨٩ . ينظر :- الطبقات الكبرى لابن سعد ، ص ٣٢٠ .

٢١- شعراء بني عبد القيس / ص١٣٠.

٢٢- هو حكيم بن جبلة بن حصين بن الاسود بن كعب بن عامر بن الحارث بن الديل بن عمرو غنم بن وديعة بن لكيز بن افصى بن عبد القيس، شعراء عبد القيس، ص ١٣٦ .

٢٣- شعراء بني عبد القيس/ ص١٣٧

المصادر والمراجع :-

- الالفاظ المعبرة عن الكلام في التعبير القراني ، دراسة دلالية رسالة ماجستير ، تقدمت بها الطالبة نبراس حسين مهاوش، جامعة بغداد ، كلية التربية لبنات ٢٠٠٥ م .

- تاريخ من دفن في العراق من الصحابة ، علي بن الحسين الهاشمي ، دار الثقافة ، بيروت – ١٩٧٤م .

- جمهرة انساب العرب ، لابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد (ت٤٥٦هجري) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – ١٩٨٣م.

- جمهرة النسب ، لابن الكلبي ، هشام بن محمد (ت ٢٠٤هجري) ، تحقيق ناجي حسن ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م.

- الدلالة الزمنية في الجملة العربية ، الدكتور علي جابر المنصوري مطبعة الجامعة ، بغداد، الطبعة الاولى ١٩٨٤م.

- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوي ، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق وشرح احمد شاكر ، مطبعة الثالثة ، بيروت – ١٩٧٧م .

- شعراء عبد القيس وشعرهم في العصرين الاسلامي والاموي جمع وتحقيق ، الدكتور عبد الحميد المعيني ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري – ٢٠٠٢م .

- الطبقات الكبرى، لابن سعيد محمد بن منيع (ت٢٣٠هجري)دارالصدار، بيروت – ١٩٦٠م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجود التاويل ، تاليف ابي القاسم محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧- ٥٣٨هجري) وفي حاشيتة كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال للامام ناصر الدين المالي ، تحقيق واخراج عبد الرزاق المهدي، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، طبعة الثانية ، بيروت – لبنان - ٢٠٠١م / الجزء الاول .

- المعجم الوسيط ، اخراج الدكتور ابراهيم انيس واخرين ، وباشراف حسن علي عطية ومحمد شوقي امين ، المجلد الثاني ، الطبعة الثانية .